مناهل الصفا فى اخبار دولة الملوك الشرفا

للوزير عبد العزيز الفشتالى

عن دولة المنصور الذهبى
(أثرت العديم وأكسبت المحروم)

الأستاذ عبد الكريم كريم
أستاذ محاضر بكلية الآداب جامعة محمد الخامس — الرباط

فى الخزانة الملكية بالرباط ، نسختان مخطوطتان (لمناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا) ، للوزير عبد العزيز الفشتالى ، تحمل الأولى رقم ٢٧٤ والثانية رقم ٥١٨٢ وهاتان النسختان تختلفان من حيث الحجم والكتابة . وعدد الصفحات والسطور .

— فالنسخة الأولى عدد أوراقها ١٥٢ ورقة أى ٣٠٤ صفحات ، وكل ورقة بحجم٢٦,٥ سم طولاً فى ٢١ سم عرضاً ، وبكل صفحة ٢٦ سطراً ، وكل سطر يتضمن نحو ١٥ كلمة .

— أما النسخة الثانية فلم ترقم بعد صفحاتها ، وحجم كل ورقة ٣٢ سم طولا و ٢٢,٥ سم عرضاً ، وتحتوى كل صفحة على ٢٠ سطراً به نحو ١٢ كلمة . وهذه النسخة مشكولة ، وتحمل تاريخ الإنتهاء وهو أوائل رمضان عام ١١٢٨ هـ .

لقد اعتمدت على النسخة الأولى ، وإن كنت أرجع بين الفينة والأخرى إلى النسخة الثانية لضبط بعض الألفاظ والكلمات والحروف التى أتت عليها الأرضة فى النسخة الأولى .

وإلى جانب ذلك يوجد ملخص ، كان الأستاذ الفاضل السيد عبد الله كنون قد نشره سنة ١٩٦٤ ، وعند مقارنة المختصر بالنسختين المخطوطتين ، يبدو لأول وهلة بأن هذا الملخص هو اختصار وتلخيص لما جاء بهما ، إنما الذى قام بالتلخيص قد تصرف كثيراً وإلى حد بعيد ، فى إثبات وحذف العديد من الموضوعات والمعلومات

القيمة التى لا تدرك إلا بالرجوع إلى الأصل أولا والمختصر ثانياً . ولعل ذلك مما دفع السيد الأستاذ عبد الله كنون إلى أن يثبت فى الصفحة ١٣ قوله « . .. فضلا عن أنه إذا نشر الأصل فإن هـذا المختصر سوف لا يرى النور ولا يجد سبيلا إلى الظهور أبداً » .

وتعود أهمية المخطوط إلى عدة عوامل ·

أولا — أهمية الفترة التى يتحدث عنها بالنسبة لتاريخ المغرب الحديث .

ثانياً — كون مؤلفه شاهد عيان ، وفى المطلعين على مجرى الأحداث الداخلية والخارجية .

ثالثاً — تعرضه إلى الأحداث السياسية والحضارية .

رابعاً — أغنى وجوده عن الرجوع إلى المراجع الـكثيرة التى نقلت عنه .

* * *

المنصور الذهبى وعصره :

أولا — عرف القرن السادس عشر صراعاً قوياً وعنيفاً بين إمبراطوريات ثلاث : الأتراك العثمانيون فى الشرق والأسبان والبرتغال فى الغرب .

(ا) فالأتراك العثمانيون الذين تولوا الخلافة الإسلامية وسعوا إلى توحيد قوى العالم الإسلامى للدفاع عن بلاد الإسلام ضد الغزو المسيحى الغربى . قد أجبرتهم ظروفهم السياسية والتوسعية على الاهتمام بالغرب الأقصى كجزء لا ينفصل عن بلاد الشمال الإفريقى التى دخلت جميعها تحت سيطرتهم وللدفاع عن حدود إمبراطوريتهم الغربية ثم لأن ضم المغرب من شأنه أن يمكن الأتراك من السيطرة على قواعد استراتيجية تمكنهم من تهديد أوربا الغربية المسيحية وإيبريا بوجه خاص وتساعدهم على وضع جميع مقدرات خصومهم الأسبان والبرتغال تحت رحمتهم والتحكم أخيراً فى طريق الهند البحرية التى نتج عن اكتشافها أضعاف اقتصاديات الشرق الإسلامى وتحويل طريق التجارة العالمية فى البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى .

(ب) والأسبان والبرتغال الذين نجحوا فى اكتشاف العالم الجديد والتعرف على

طريق الهند البحرية قد عاد عليهم ذلك بالغنى والرفاهية ومكنهم من تسليح القوات العسكرية والأساطيل البحرية التى غزوا بها مناطق واسعة من العالم القديم والجديد ، ولما كان المغرب الأقصى أقرب بلاد عربية إسلامية إلى أوربا الغربية الناهضة المسيحية ، فقد تعرضت سواحله المطلة على البحر المتوسط والمحيط الأطلسى إلى غزو منظم من قبل البرتغال والأسبان الذين كانوا يرون فى المغرب نقطة دفاع وانطلاق لرد الخطر العثمانى المسلم عن إيبريا المسيحية من جهة ، وللتوسع فى القارة الإفريقية العالم الغنى المجهول من جهة أخرى .

(ج) أما وضعية المغرب الأقصى الداخلية فقد ساعدت على نجاح حركة الجهاد المقدس التى تزعمها الشرفاء السعديون منذ السنوات الأولى للقرن السادس عشر ، وعند منتصف هذا القرن كان السعديون بقيادة المولى محمد الشيخ المهدى قد أتموا وحدة المغرب السياسية وأصبحوا مجاورين فى حدودهم الشرقية والشمالية والغربية لقوى الإمبراطوريات الثلاث التى أخذت تتجاذبهم نحوها ، إلا أن حرص الحكام المغاربة الجدد على وحدة بلادهم واستقلالها ، وإدراكهم المرامى الحقيقية والتوسعية لكل من الأتراك والأسبان والبرتغال قد دفعتهم إلى اتخاذ كل وسائل المقاومة ، والدفاع وأجبرتهم على نهج السبل الكفيلة بالمحافظة على حريتهم واستقلالهم . وهذا الموقف من قبل الحكام السعديين جعل السياسة المغربية تتسم بصفات خاصة قوامها الوقوف على حذر واتخاذ كل وسائل المقاومة والدفاع ضد كل تدخل خارجى شرقياً كان أو غربياً . وقد وجدوا فى الخلاف القائم بين الدول الكبرى الثلاث وفى الحروب المستمرة بينها مجالا رحباً لتحقيق ما يرمون إليه ويسعون إلى تحقيقه .

(د) وعندما تولى المولى أحمد المنصور عرش المغرب عام ٩٨٦ هـ/١٥٧٧ م . كانت الوضعية الدولية قد عرفت نوعاً من التطور : فالقوتان العظيمتان التركية ، والأسبانية قد دخلتا فى مفاوضة لإقرار نوع من الهدنة والسلم بعد حروب طويلة وشاقة ، وذلك للمشاكل الداخلية التى أصبح يعانيها كل من السلطان العثمانى الثانى مراد الثالث والملك الأسبانى فيليب الثانى ، ولأن كلا منهما كان يرى فى مهادنة الجانب الآخر ما يساعده على وضع حد للمشاغل العديدة التى من أهمها تصفية مشكلة المغرب الأقصى وبسط النفوذ على هذه البلاد ذات الموقع الستراتيجى الهام . غير أن

المولى أحمد المنصور وما كان يتمتع به من دهاء وحزم ، قد عرف كيف يفسد على بعض القادة الأتراك خططهم التوسعية الرامية إلى غزو المغرب . وظل المنصور ونجح من جهة أخرى فى الصمود دون انتشار النفوذ الأسبانى بالمغرب ، وظل المنصور هكذا فى مرحلة الاستعداد المسلح مع اليقظة والحذر إلى أن أخذت الظروف الخارجية تتطور فى غير صالح كل من خصميه التركى والأسبانى :

فبالنسبة لمراد الثالث هناك المشكلة الإيرانية والحروب ضد الصفويين الشيعيين علاوة على الجبهة المسيحية القوية بأوربا الشرقية .

وبالنسبة لفيليب الثانى اشتداد حدة الحروب الدينية وتطور الخلاف الأسبانى ـ الانجليزى لتزعم مدريد ولندن المعسكرين المتحاربين الكاثوليكى والبروتستانتى .

لقد استغل المولى أحمد المنصور إلى حد بعيد ظروف الصراع القائم بين الجبهتين المسيحيتين بأوربا الغربية . وبلغ به الأمر أن تدخل فى هذا الخلاف وأصبح طرفاً هاماً يتوقف عليه مدى نجاح وفشل أى من الجانبين المتحاربين ، أوضح لقد أصبح المنصور وبالتالى المغرب يتحكم فى ميزان القوى الدولية وفى التوازن الدولى سواء بين دول الشرق والغرب أو بين الجبهتين المسيحيين الكاثوليكية والبروتستانتية ، وقد عاد ذلك على المغرب بتحرير بعض مراكز الاحتلال الأجنبى كما ساعده على تأسيس إمبراطورية واسعة بغربى إفريقية تضم بين مناطقها بلاد السودان الغنية بذهبها وتوابلها ورقيقها والتى كانت من أهم الأسواق التجارية فى العالم .

أصبح المنصور الذهبى منذ عام ١٠٠٠ هـ/١٢٩١ م نداً لكل من خصميه السلطان العثمانى ، والملك الأسبانى ، وأصبحت دولته لا تقل عظمة وقوة وغنى عن دولتيهما كما أن سلطته أصبحت تشمل إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ، مما جعل المغرب فى عداد الدول الكبرى وأجبر حكام استامبول ومدريد على أن يحسبوا للدولة المغربية ولخليفتها المولى أحمد المنصور كل الحساب ، علاوة على الاحترام ، والتقدير الذى أصبح الحاكم المغربى يتمتع بهما ، وقد تفرغ المولى أحمد منذ هذا التاريخ للأعمال العمرانية والإنشائية كما أخذ تطوير دولته سياسياً وحضارياً .

على أن للمنصور الذهبى قد وجد فى انشغال الأتراك العثمانيين بحروب أوربا

الشرقية ، وفى انهماك الأسبان بالحروب الدينية فى غربى أوربا ، الفرصة الذهبية لتحقيق الكثير من الأمانى ، وأكثر ما ظهرت نواياه العدائية ضد الأسبان عندما انتهت حملة الأرماد الأسبانية ضد انجلترا بالفشل سنة ١٥٨٨ م . فقد أعرب المنصور عن تأييده للأمير البرتغالى دون أنطونيو المطالب بعرش لشبونة ضد فيليب الثانى ، بل ودخل فى مفاوضات سرية مع ايليزابيث ملكة انجلترا لإعداد حملات عسكرية ضد أسبانيا ومستعمراتها ، إلا أن المولى أحمد لم يتمكن من السير قدماً فى هذا الاتجاه للأحداث الداخلية الخطيرة التى عرفها المغرب وأهمها ثورة الناصر بن المولى عبدالله الغالب (ابن أخى المنصور) سنة ١٢٩٥ وما وجدته من تأييد من قبل الأسبان ثم انتشار الطاعون والأوبئة مما قضى على الكثير من الأرواح والحق الإضرار الفادحة بالاقتصاد المغربى ، وأخيراً ثورة المأمون ولى عهد المنصور بفاس ، ومحاولته التعاون مع الأتراك فى الجزائر لولا أن تدارك المنصور الأمر وقضى على الثورة فى مهدها . وقبل أن يعود المنصور من فاس إلى مراكش أصيب بداء الطاعون ووافاه الأجل المحتوم سنة ١٠١٢ هـ/١٦٠٣ م .

* * *

مؤلف المخطوط :

ثانياً — أما مؤلف المخطوط فهو عبد العزيز الفشتالى ، ولد عام ٩٥٦ هـ أى السنة التى ولد فيها المولى أحمد المنصور وقد كان رفيقاً له منذ صباه . وحسب رواية المقرى المعاصر فى (روض الآس) فان الفشتالى يعد من أشهر وزراء المنصور وكتابه وشعرائه . مات بعد المنصور بعشرين سنة فى عام ١٠٣٤ .

والمعلومات القيمة التى أوردها الفشتالى فى مخطوطه الأسرار والأحداث الدقيقة فى عصر المنصور ، تثبت بأنه كان من المقربين جداً للمولى أحمد ، ومن خواص جلسائه . وتعكس من جهة أخرى ما كان يتمتع به من علم غزير واطلاع واسع على مجريات الأحداث والوقائع الداخلية والخارجية . وقد أكد العالم أبو مالك عبد الواحد بن أحمد الشريف فى الرسالة التى وجهها إلى المنصور مكانة الفشتالى السياسية والعلمية عندما كتب « .... فتركت أيدكم الله الصدر لمن هو به منى أقعد ،

وتحاميت عقده لمن هو له أعقد . أبى فارس عبد العزيز الذى فاضت عليه أنواركم ، وأضاءت له سبل هذا المنحى أقماركم ... » (ص ٥٤) .

أما ناسخ المخطوط ومكان نسخه وزمانه ، فالنسخة التى بين أيدينا لا تتضمن إشارة إلى ذلك . كما نجهل ما إذا كانت هذه النسخة المخطوطة قد نقلت عن المؤلف مباشرة أو بواسطة نسخة ونسخ أخرى . وكل ما يمكن قوله : هو أن الناسخ كان أميناً — فيما يبدو — إلى حد بعيد لدرجة أنه قد ترك الكثير من البياض للكلمات والألفاظ والحروف التى ربما صعب عليه فهمها ونقلها ، وحافظ على صيغ الأفعال عند التكلم والمخاطبة بل وحافظ أيضاً على ترتيب الموضوعات التى لم تكن مرتبة ترتيباً . هذا فيما إذا فرضنا بأن الناسخ قد نسخ عن آخر قبله ، وكيفما كان الأمر فان ناسخ المخطوط لم ينتبه إلى مسألة الترتيب الزمنى للموضوعات والأحداث ، ولعل ذلك كان مصدره المؤلف نفسه الذى كتب تواريخه بشكل مذكرات وكراريس والذى لم تساعده الظروف — كما يظهر — على جمعها وترتيبها . فاختلط الأمر على الناسخ وقدم وأخر . وعلى سبيل المثال :

— فى الصفحة ٥٢ عند التحدث عن (ارتجاع العساكر من كاغو إلى تنبكتو) يبدأ الحديث بقوله : « لما استولت العساكر الأمامية على كاغو ... » فالمفروض أننا نعرف احتلال القوات المغربية للسودان ، مع أن التحدث عن فتح السودان والتفكير فى ذلك لن نتعرف عليه إلا فى الصفحة ٦٨ .

— فى الصفحة ٨٤ لما تعرض لتوسع القوات المغربية فى المناطق الصحراوية الساحلية الممتده بين جنوبى المغرب ونهر السينغال قال « لما تم لمولانا الإمام الخليفة المنصور بالله ما أراد من فتح إقليمى توات وتيكورارين ... » وفى الصفحة ٦٧ عند التحدث عن فتح السودان يقول : « وكان أيده الله تعالى حسبما قدمنا قد وطىء عساكره الأمامية هذه الأقاليم ذات اليمين مع سيف البحر » .

— فى الصفحة ٤٨ وبعد الكلام عن فتح اقليمى توات وتيكورارين يذكر الرسائل التى بعثها المنصور إلى (الجهات والأقطار من ممالكه بالفتح وإنهاء البشرى بما أفاء الله عليه) مع أن هذه الكتب قد وجهت بعد فتح السودان الذى سيبدأ الحديث عنه فى الصفحة ٦٥ .

— فى الصفحة ٦٢ يتحدث عن قفول العساكر من توات وتيكورارين بعد إخماد ثورة قامت بهما (كنا أشرنا إلى ما كان من انتقاض أهل توات وتيكورارين وإجلاب عرب اليمن ..) مع أن الحديث عن هذه الثورة لن يأتى إلا فى الصفحة ١١٢ .

إلى غير ذلك فى الأمثلة التى تؤكد بأن الفشتالى لم تمهله الظروف القاسية التى عرفها المغرب بعد المنصور لجمع مذكراته ، فاشتبه الأمر على جامعها من بعده ، وفى إمكاننا ترتيب الموضوعات والأحداث ترتيباً تاريخياً وتصحيح الخطأ الذى ارتكبه من جمع مذكرات الفشتالى دون أن نعتبر ذلك مخلا بقواعد البحث التاريخى العلمى طالما أن الخطأ — كما يبدو بكل وضوح — لم يصدر عن المؤلف نفسه .

أما الفشتالى المؤرخ فأهم ما يلاحظ عليه :

١ — إطنابه فى مدح المولى أحمد المنصور والإعلاء فى شأنه وشأن الخلافة السعدية الشريفة ، مما يجعل الدارس أحياناً يقف من رواياته وأخباره مواقف الحذر ، ولا غرابة فى ذلك طالما أنه كان من المقربين عند المنصور وكاتبه الخاص ومؤرخ دولته الرسمى .

٢ — عرضه تفاصيل ووقائع دقيقة كشفت النقاب عن الكثير من الأحداث التى عرفها المغرب خلال العهد السعدى وعصر المنصور الذهبى بوجه خاص . وبعض هذه المعلومات يعرف لأول مرة . وجميعها يلقى الأضواء على مرحلة حاسمة من تاريخ المغرب السياسى والحضارى خلال العشرين سنة الأخيرة من القرن السادس عشر وهى الفترة الحرجه التى قررت مصير المغرب خلال القرون الثلاثة المقبلة من التاريخ الحديث .

٣ — لقد كتب الفشتالى تواريخه بشكل مذكرات وكراريس ، يحمل بعضها الشهر والسنة التى قام خلالها الوزير بتسجيل الأحداث ، وعلى سبيل المثال :

— فى صفحة ١١٢ عندما كان الفشتالى يتحدث عن وصول المنصور إلى فاس عام ٩٩٧هـ وعن أهم الأحداث التى حصلت بالمغرب تعرض إلى ثورة توات وتيكورارين وكيف أن المنصور قد أرسل ضدها قوات جرارة «... وهم لهذا العهد غائبون تجاهها كتب الله سلامتهم فى الظعن والإقامة ومنحهم الظفر والغنيمة» .

— فى الصفحة ١١٤ يتحدث عن ممدن اللح بتغازى وعن استغلال آل سكية ملوك السودان له ثم يذكر « .. واستفحلت الدولة اليوم لعهده الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن فرءا نصره الله ان المعدن لبيت المال » .

فى الصفحة ١٢٨ تعرض إلى فتح السودان وقيام محمود باشا بتمهيد أمره نهائياً خلال ثلاث سنوات ١٢٩٥ — ١٢٩٣ وذكر بأن المنصور قد أمر محمود باشا ومن معه من القوات المحاربة بالعودة إلى المغرب على أساس تعويض ذلك بقوات أخرى جعل على رأسها منصور بن عبد الرحمن ، وفى معرض كلامه عن القوات الجديدة ذكر ما يلى « .. وتسايلت لهذا العهد كتائبها على هذا النمط متتالية ونصر الله يقدمها والتأييد يصحبها » .

— فى صفحة ١٣٦ عند تحدثه عن اشتداد الحروب الدينية بغربى أوربا يشير إلى تدخل الاسبان ضد هنرى الرابع بفرنسا «فتها لكوالهذا العهد فى مضايقته» ثم يتعرض إلى الهجومات الإنجليزية ضد الشواطىء الاسبانية «وفى هذا التاريخ صمد إليه أسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب » .

— فى صفحة ٢٢٦ عند تحدثه عن بناء البديع قال « فكان مبدأ الشروع فى تأسيسه فى شوال خامس الأشهر من خلافته السعيدة فى عام ستة وثمانين وتسعمائة واتصل العمل إلى هذا العهد وهو عام اثنين وعشر مائة لم يتخللها فترة » .

— فى صفحة ١٩٠ لما تحدث عن توكل المنصور على الله روى حادثة خاصة وقال « ومما يحكى فى هذا الباب ... فى صفر فى عامنا هذا وهو عام سبعة وتسعين » .

— فى صفحة ١٥٧ ذكر الفشتالى بأن المنصور قد كاتب بعض علماء المشرق فى مصر مخبراً إياهم بالقضاء على الثورة التى قام بها ضده ابن أخيه الناصر « . . . إلى كبير مشايخ الأولياء والعلماء على الطريقة اليوم بالديار المصرية الشيخ الأستاذ زين العابدين بن الشيخ القدوة محمد بن أبى الحسن البكرى الصديق » . والكتاب يحمل تاريخ ربيع النبوى عام ١٠٠٥ هـ .

— آخر حدث تاريخى أورده المخطوط إيقاع المنصور بعرب الخلط عام ١٦٠٦ هـ / ١٥٩٧ وقد تم ذلك بعد القضاء على ثورة الناصر « فجهز إليهم العساكر

إثر الإيقاع بالناصر » ص ١٦١ وعندما نتساءل هل توقف الفشتالي عن كتابة المذكرات أم أنه استمر في ذلك ولكن الأيام أتلفتها كما حصل للكثير من مؤلفاته ؟ فاعتماداً على ما أورده في صفحة ١٧٠ « وإذ جرت بنا جياد الأقلام في ميادين التقييد إلى هذا المدى البعيد عن دولة مولانا الخليفة حامي بيضة الإسلام أمام الأمة كافل الملة تاجر الخلافة مركز دائرة الإمامة مولانا الإمام المجاهد أبي العباس المنصور بالله أمير المؤمنين أيده الله فقد آن لنا أن نختم هذا السفر بمآثره الشريفة المنيفة التي وعدنا أول الكتاب بسوقها إلى أن يسنى الله تعالى بفضله على يده من الفتوح والظفر الممنوح ما يستفتح به إن شاء الله سفر آخر متصل موصول الأخبار المتقدمة بصلة من أخبار . .. » فالفشتالي ارتأى أن يختم الأحداث السياسية التي عرفتها العشرون سنة من حكم المنصور (٩٨٦—١٠٠٦ هـ) بالحديث عن مظاهر حضارية امتاز بها هذا العهد ، على أمل الشروع في تأليف كتاب آخر يتضمن ما ستأتي به الأيام من أحداث ووقائع وما سيفتحه الله على يده من الفتوح ، فهل أنجز وعده وألف عن الفترة الأخيرة من حكم المنصور بل وعن أحداث ربع قرن من الزمن وهي المدة التي امتدت خلالها حياة مؤرخنا ؟ وأن التاليف قد ضاع ؟ أم أن أحداث المغرب الداخلية منذ ١٠٠٧/١٥٩٨ قد عاقته عن القيام بذلك خصوصاً وأن السنوات الخمس الأخيرة في حكم المنصور قد تعرض خلالها المغرب لأحداث جد مؤلمة : انتشار الطاعون بكل المغرب لكثرة قتلى المعارك والثورات ، واضطراب سبل الحياة الاقتصادية حيث أخذت المجاعة تعم البلاد وتزيد من أمر داء الطاعون استفحالا ثم الثورة التي قام بها المأمون بفاس ضد والده المنصور بمراكش والتي لم يتمكن المنصور من القضاء عليها إلا بعد جهد جهيد ، فهذه النكبات الثلاث غيرت مجرى الحياة في المغرب وكانت نقطاً سوداء في صفحة المولى أحمد المنصور الذهبية ، لم يجد فيها الفشتالي ما يثير الاهتمام ويستحق التسجيل وبالتالي ما يزيد من شأن ممدوحه الذي امتازت دولته بأنها « الدولة الشريفة التي أثرت العديم وأكسبت المحروم » ص ١٤٦ .

— من المآثر التي اتصف بها المنصور والتي يختم بها الفشتالي صفات ممدوحه الكثيرة : الجهاد في سبيل الله براً وبحراً لرفع راية الإسلام والعمل على استعادة الفردوس المفقود (الأندلس) وما يتطلب ذلك من إعداد العدة والعتاد ، وآخر فقرات المخطوط ، الدعاء للمنصور : « أسأل الله تعالى لمولانا الإمام ظل الله في الأنام منشىء الآثار التي عرف فضلها الإسلام بقاء يخلق أثواب الأيام ونصراً تحقق بعزه

الرايات والأعلام وتحصد سيوفه المنافقين وطواغيث الشرك وعبدة الأصنام بمنه وفضله » (ص ٣٠٤).

٤ — حاول الفشتالى — كما يلاحظ — تنظيم بعض مذكراته السياسية والحضارية موضوعياً كما يتضح من :

(ا) استعماله عبارات خاصة يفهم منها أن الموضوع الذى هو بصدد دراسته لم يتم بعد ، وأن ما يأتى فى الأخبار مكمل لما سبق ذكره ، فمثلا فى صفحة ١١٩ عندما كان يتحدث عن ملاحقة القائد المغربى محمود باشا لسكية بالسودان ذكر « وقطع الشق فرصة المجاز من النيل لعدوته القصوى فكان من إجلاب العساكر عليه هنالك ما نذكر إن شاء الله تعالى » .

(ب) استعمال نفس العبارات — أحياناً — التى يختتم بها الموضوع السابق كعنوان للموضوع الجديد ، كالمثال السابق حيث نجده فى نفس صفحة ١١٩ يذكر كعنوان : « ذكر إجلاب العساكر على سكية » .

وتتعدد الملاحظتان فى الصفحات التالية :

• فى صفحة ١١٩ يختم الموضوع بقوله « فكان فى خبره وخبر الإيقاع بسكية واستئصال شأفته وتدريده لأرض الكفر ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، ثم يعنون الموضوع التالى : « ذكر استئصال شأفة سكية » .

• فى صفحة ١٢٢ ختم الفصل « وأما خبر أخى سكية النازع فقد كان أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى » ، وأما عنوان الفصل التالى فهو « ذكر اصطلاء أخى سكية الناكث بنار كفره » .

• وفى صفحة ١٤١ ختم حديثه عن ثورة الناصر « إلى أن كان فى الإيقاع به ثانياً على فاس وقطع دابره ما نذكر إن شاء الله » ، وعنون الموضوع التالى « ذكر إيقاع المولى الأمير . بالناصر على فاس ثم القبض عليه وقطع دابره » .

(ج) ويزداد الترتيب حسب الموضوعات وضوحاً عنـد ما يتحدث عن المظاهر الحضارية فى عهد المنصور سواء فيما يتعلق بصفات المولى أحمد أو فيما يرجع إلى وصف مآثره ومميزات عهده .

٥ — إن المعلومات والأحداث التي دونها الفشتالي تؤكد مقدرته العلمية ، وتشهد له بنوع من الحرص على الأمانة التاريخية ، وقد اعتمد في جمع أخباره على المصادر الآتية :

(أ) المولى أحمد المنصور نفسه : فهو يكثر في استعمال عبارات يفهم منها أن هذا الخبر أو ذاك قد سمعه عن الخليفة المنصور : في صفحة ٢١٣ « وسمعته أيده الله يحدث أنه لما . . . » وفي صفحة (٢) ذكر « وهي ما حدثنا به أيده الله » (ص ٣) « قال أمير المؤمنين . . . » كما ينبه على قل نقله عن مدونات الخليفة : « ورايت أن أملي الخطبة الشريفة بكمالها ليعلم منها موضوع الكتاب . . . » ص ٢٥٨ — « وقد رأيت أن أعول في تحقيق هذا على تقييد شريف بخط يده الكريمة ناولنيه أيده الله متضمناً لذكر ما قرأ من العلوم . . . » ص ٥١٩ .

(ب) ما نقله عن الآخرين من القدماء والمعاصرين :

فقد روى الكثير عن المؤرخين القدماء أمثال ابن حيان في تاريخه في صفحة ٥١١ ذكر : « ابن حيان في تاريخه أن المنصور بن أبي عامر لما . . . » ، وابن خلدون في عبره : أورد في صفحة ٣٨ « وقد ألم الإمام ابن خلدون في كتاب العبر بذكر تيكورارين . . . » .

ورجع إلى المعاصرين له أيضاً لتسجيل وضبط الأحداث : فعند الحديث عن فتح السودان مثلا نجد في صفحة ٨٠ قوله : « يحكى عن بعض الأدلاء المهرة ممن صحب عسكر مولانا الإمام . . . » وفي صفحة ٧٩ ذكر « حدث بعض الثقاب من أعيان التجار . . . » . ثم في صفحة ١٩٣ « ثم عرض إجتماعي في ذلك اليوم أو بعده مع شيخنا العلامة أبي العباس أحمد بن علي الزموري . . . فحدثني بشارة القضية لعدم إتفاق حضوري ساعتئذ » . فالفشتالي أهبت من جهة المصدر الذي اعتمد عليه ونبه من جهة أخرى . على أنه غير متأكد فيما إذا كان التقاؤه بالشيخ أبي العباس قد تم في هذا اليوم أو الذي بعده ، وتلك ميزة عرف بها مؤرخنا تشهد له بمقدار الضبط الذي كان يتصف به .

(ج) ما يشاهده واطلع عليه : كما هو الحال عند تعرضه إلى صفات المنصور الخلقية والخلقية وإلى العديد في مآثره العمرانية كالقصر البديع وحصون فاس والعرائش

ثم معاصر السكر ومعامل الذخيرة والسلاح . . . وغير ذلك من الموضوعات الحضارية والسياسية .

* * *

الأهمية السياسية والحضارية للمخطوط :

تعرض الفشتالى إلى الأحداث السياسية والمظاهر الحضارية :

(أ) الناحية السياسية :

بلغ المغرب فى عهد المولى أحمد المنصور مرحلة هامة فى التطور والإزدهار ، جعلت هذا العصر الصفحة الذهبية المشرقة فى تاريخ الدولة السعدية ، وقد سجل الفشتالى كثيراً من التطورات الداخلية والخارجية عن هذا العهد ، ولكن ناسخ مذكراته اشتبه عليه الأمر فقدم وأخر . ومن الممكن ترتيب الموضوعات تاريخياً :

* السنوات الخمس الأولى فى حكم المنصور ٩٨٦ هـ ٩٩١ هـ) [من صفحة ١ إلى صفحة ٥٢] تحدث الفشتالى عن بيعة المولى أحمد وقيامه بنكبة بعض قادة الجيش للفتن التى حاولوا القيام بها . ثم تعرض إلى وصف السفارات الأجنبية التى قصدت مراكش لتهنئة المنصور . ومن أبرز تطورات هذه المرحلة الخلاف المغربى — العثمانى الذى دفع المولى أحمد إلى اتخاذ كل وسائل الدفاع والوقوف على أهبة الاستعداد لرد أى تدخل خارجى . غير أن تراجع الأتراك عن غزو المغرب لظروفهم الخاصة جعلت المنصور يستغل وجود القوات المسلحة وينطلق إلى فتح إقليمين صحراويين بالمغرب الجنوبى — الشرقى هما توات وتيكورارين . وكانت آخر أحداث هذه الفترة وصول سفارة من برنو أرسلها أدريس الثالث إلى المنصور ، أملا فى أن يمده الحاكم المغربى بالأسلحة النارية ولكن المولى أحمد اشترط دخول برنو فى طاعته وكتب الفشتالى نص البيعة .

* خلال سنة ٩٩٥ هـ (من ص ٨٧ — ١٠٣) ضمت القوات المغربية جميع المناطق الصحراوية التى تمتد بين وادى درعه شمالا ونهر السينيغال جنوباً ، وقام المنصور بحشد عظيم فى سهول تامسنا لأخذ البيعة من العامة وكبار القوم لابنه ونائبه

على فاس المولى محمد الشيخ المأمون . وأثبت الفشتالى فى مخطوطه فى البيعة الذى يعد من الوثائق الهامة .

* وفجأة نجد أنفسنا أمام أحداث سنة ٩٩٦ هـ . فهل فقدت الكراريس التى كانت تتضمن حوادث سنة ٩٩٣ — ٩٩٤ — ٩٩٥ هـ ؟ أم أن الفشتالى كان مريضاً خلال هذه المدة [فى صفحة ٢٥٩ ذكر الفشتالى « وأما ما قابلتنى به عنايته أيده الله عند انغماسى فى العلة المتطاولة لأمد من حولين كاملين . . . »] . وفى سنة ٩٩٦هـ (من ص ١٠٤ — ١٠٧ قامت بشمالى المغرب ثورة تزعمها (ابن قرقوش) وقد تمكن المأمون بفاس من القضاء عليها أخيراً .

* أما أحداث سنة ٩٩٧ هـ فكانت :

١ — (من ص ٥٥ — ٦٥) : تفكير المنصور فى استغلال معادن ملح تغازى بالصحراء المغربية الجنوبية ومراسلته إلى سكية بالسودان فى ذلك . ثم القضاء على ثورات قام بها عرب الخلط بسهول المغرب والقبائل اليمنية بتوات وتيكورارين .

ومن الأحداث أيضاً استرجاع مدينة أصيلا من الأسبان .

٢ — (من ص ١٠٧ — ١٠٩) : فشل المحاولة التى قام بها المغاربة لتحرير مدينة سبتة من الاحتلال الاسبانى .

* وفى سنة ٩٩٨ هـ (من ص ٦٩ — ٧٧) أخذ المنصور يفكر جدياً فى فتح السودان للظروف الداخلية والخارجية المساعدة ، فجمع مجلساً للشورى ضم كبار القوم وقادة الجيش . واقتضى النظر أخيراً تهيىء الحملة ومكاتبة قاضى تنبكتو بالسودان للدخول فى الطاعة .

* ثم فى سنة ٩٩٩ هـ (ص ٨٠ — ٨٧) تقدمت القوات المغربية المسلحة إلى غزو السودان فطالب اسكيا اسحاق بالهدنة مقابل خراج عظيم سنوياً وتوقف القتال فى انتظار جواب المنصور .

* وخلال السنوات الثلاث الأولى من مطلع القرن الحادى عشر للهجرة (١٠٠٠ — ١٠٠٢ هـ) [من ص ١١٦ إلى ص ١٢٩] استؤنفت الحرب ضد السودانيين إلى أن الجو للمولى أحمد المنصور .

* وفي السنتين التاليتين (١٠٠٣ — ١٠٠٤ هـ) [من ص ١٣٨ — ١٦٠] اشتعلت بشمالي المغرب وبجبال الريف ثورة خطيرة تزعمها أحد أبناء إخوة المنصور وهو الناصر بن عبد الله الغالب ، إلا أنها انتهت بالفشل . ولإبراز مدى خطورتها نشير إلى أن المنصور قد بعث رسائل عديدة إلى الشرق الإسلامي (مصر ومكة) وإلى مختلف الأقاليم المغربية ليزف بشرى القضاء على هذه الثورة .

* وأخيراً قام المنصور عام ١٠٠٦ (من ص ١٦٠ — ١٧٠) بتشريد قبائل عرب الخلط بسهول الغرب ، لأعمال النهب والتخريب التي قاموا بهـا ولقيامهم بتأييد الناصر زمن ثورته ضد عمه المولى أحمد المنصور .

* * *

(ب) الناحية الحضارية : وتشمل الحديث عن المظاهر الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي عرفها المغرب خلال عهـد المولى أحمد المنصور . وقد حاول الفشتالي إلقاء الضوء على الكثير من هذه المظاهر . مما زاد في قيمة المخطوط الذي بين أيدينا . ومظاهر الحضارة المغربية زمن المنصور ، وكما أثبت ذلك الفشتالي ، تميزت بالصفات الآتية :

١ — المظهر الإداري . ويستلفت النظر هنـا بعض الأعراف الدبلوماسية التي كانت بالمغرب والتي قل أن تجد لها مثيلا في مصدر تاريخي آخر ، وعلى سبيل المثال نورد صوراً لذلك :

استقبال المنصور لوفد برنو (ص ١٦ — ١٧) حيث ذكر الفشتالي : «وكان يوم سلامه يوماً مشهوداً حسناً وفخامة وأبهة وجلالة ، جلس لهم أمير المؤمنين أفخم جلوس بالقبتين التوأمتين المضروبتين أمام السياج المحيط بقباب الخلافة بإفراك ، واستوقف الوالي والماليك سماطين من التوأمتين إلى القبة العربية ثم منه إلى باب المعسكر القبلي ، فغودي بالرسـول يخترق السماطين حتى أنزل بالديوان وكان الملأ من أكابر الدولة وصدور المملكة جلوساً به وكرسي الأمانة وسرير الخلافة منصوب به وآماط الإمامة الكريمـة ممهدة وأوطيتها مبسوطة والمهابة قد أخرست الألسن وخشعت القلوب والأبصار فجلس الرسول هنالك ملياً ثم غودي به على سبيل الترقي إلى القبة العربية

فتلبثت بهـا ريثما جاء الإذن الـكريم بإيصاله إلى مقر الأمانة الـكريمة العلية . . . فنودى به إلى التوأمتين فمثل بين يدى أمير المؤمنين ... فأدى الرسالة وقضى فرض التهنية وسنة الهدية ... ثم انصرف على رسله إلى معسكر ولى عهد الخلافة ... فأشرف الرسول على دنيا أخرى وأبهة مدهشة ... واستدرج إلى أن وصل لولي العهد وقد قعد له بفسطاط جلوسه أفخم قعود ... » .

— استقبال المنصور لأبنائه وبالأخص ولى عهده المأمون : فقد وصف الفشتالى لقاءهما عام ٩٩٢ هـ عندما عزم المولى أحمد على إعلان بيعة ولاية عهد إبنه هذا بسهول تامسنا (ص ٣٢) « ولما كان يوم وصول ركابه العالى وطلوع طلائع السعد أمام موكبه الزاخر العباب ، ركب أمير المؤمنين أيده الله فى العساكر للقائه تـكرمة وإجـلالا وبروراً بمقدمه وبرز إلى الصحراء خارج معسكره السعيد فوقف فى الأجنـاد وأقبل المولى الأمير أبو عبد الله فى كتائبه وقد ملأت الربى والأباطح فى أفخم زى وأحسن أبهة وأجمل شارة وانبرت الـكتائب يتسرب للسلام على أمير المؤمنين فوجاً من بعد فوج حتى قضى جميعهم فرض التحية وتدافع المولى أبو عبد الله فى موكبه المتلاطم وقد تطلع خلال الرايات كالـكوكب الدرى ولما هوى إلى الأرض ساعياً على أقدامه الطاهرة للثم الركاب العلى الأمامى شرفه الله وقضاء فرض التحية راجلا برز أمير المؤمنين أيده الله عن العساكر ووقفت بمركزها وتقدم وحده للقائه مرحباً وشفيقاً ومتبسطاً حتى أمكنه فى لثم قدمه المشرفة وحنى متطاطئاً من صهوته على رأســه حتى قبله واستركبه إلى جنبه وسارا معاً فى الولاية والعساكر ... » .

— ومن المظاهر الإدارية حرص المنصور على أخـذ البيعة بولاية العهد لإبنه المولى محمد المأمون . لضمان استمرار الحـكم فى خلفه وحتى لا تضطرب الأوضاع بعد وفاته كما حصل فى العهود السابقة . وقبل أن يتم إعلان بيعة ولاية العهد « جمع أمير المؤمنين أرباب الدولة وأهل الحل والعقد وسائر الأجناد والعساكر وجلس لهم المولى أبو عبد الله بخيمة أمير المؤمنين العظمى فازدحم الناس على تقبيل يده ومصافحته بالبيعة واقتضيت منهم الإيمـــان بمحضره فـكمل الغرض فى ذلك الجمع المبارك » . (ص ٣٢) .

وعن الطريقة التى تم بها أخذ بيعة المأمون كولى للعهد ، ذكر الفشتالى فى

الصفحة ٩١ كيف « اجتمع باجتماعها فى ذلك المخيم السعيد والمشهد المبارك أمم لا تحص فى أجناد المغرب ورؤساء القبائل والأشياخ وسائل أهل الحل والعقد ومن يشار إليه فى المغرب بالبنان ... وأمرنى أيده الله بالقيام على رؤوس الأشهاد برسم البيعة فرفعت بقراءته عقيدتى ، ليتأدى إلى الناس فهمه ، وبعد فصوله وقام إلى جنبى قاضى الجماعة . . . أبو القاسم بن على الشاطبى مفسراً لما أشكل على النـاس من أحكام البيعة ...

. . وإندفع الناس للبيعة وإعطاء صفقة الإيمان وتسابقوا إلى ذلك وإزدحموا عليه إزدحام الحجيج على الحجر الأسعد . . وكان الأمراء بنو الإمام أمير المؤمنين أيده الله تأخرت بيعتهم عن الحجم الغفير إكراماً لهم . . إلى آن عقد لهم من الغد مجلس خاص بهم فى القبة العربية . . فسمعوا وأطاعوا وأوقعوا على الرسم علاماتهم بالرضى والقبول . . »

— وعن الإدارة المركزية وأهم عناصرها ، يستلفت نظرنا القصر الملكى الذى هو فى آن واحد مقر إقامة الخليفة المنصور ومركز إدارته التى تضم : قاضى الجماعة ، مشيخة العلم ، الحاجب ، قائد القواد ، الـكتاب ورؤساء الجند . . وفى الصفحة ٢٠٤ نجد وصفاً دقيقاً ليوم من أيام الديوان : « جلس أهل الإيوان وأرباب المناصب وأكابر الدولة الذين عليهم مدار الأمور يرقبون خروج أمير المؤمنين ثانياً فإذا حاز وقت الزوال أو كاد يخرج للجلوس وابراسيم أمور ملـكه وسلطانه فيحضر خواص بساطه الـكريم وكاتب سره ويناوله ماورد على أبوابه الـكريمة من الـكتب من سائر الأقطار لـكتب مايخصه منها وتفريق غيره على الـكتبة وتعرض عليه القضايا ومهمات الملك ثم يؤذن لسائر الأكابر والـكتاب وأولى المناصب فى الدخول فيأخذ عند ذلك أيده الله فى العلامة أن كان اليوم يومها فتارة بيده الـكريمة أن كانت الـكتب أجوبة أو ظهائر وتارة بالطابع أن كانت مظالم أو براوات الأشغال والعطاء أما يأخذ فى إملاء الأجوبة على الـكتبة أو فى سماع ما يرفعه أهل الديوان من المسائل مناوبة يستمر على ذلك حتى يصلى الظهرين غالباً يوم الناس فيهما فيدخل إلى قصره أيده الله ويتفرق الديوان . . » .

— وإلى جانب أيام الديوان التى هى السبت والاثنين والأربعاء ، هناك أيام

الراحة « وهى التى تتخلل أيام الديوان لا يحضرها إلا الندمان من الخاصة أو من ينادى من غيرهم لخدمة تعرض أو مشورة تتعين أن كان من أهلها » [ص٢٠٢].

— ومما امتازت به إدارة المنصور حرصه الشديد على « معرفة أخبار الآفاق الشاسعة والأقطار البعيدة والإطلاع على أنباء الملوك من أضداده وأوليائه وبث أصحاب الأخبار فى البلاد دانيتها وقاصيتها وأذكاء العيون فى سائر جهات ممالك من داره إلى المغرب بل إلى قاصية السودان اليوم من ملكه . . ولقد بلغ به الإغراق فى مذاهب الحزم أيده الله إلى أن اخترع لهذا العهد أشكالا من الخط على عدد حروف المعجم يكتب بها فيما لا يريد الإطلاع عليه من أسراره ومهمات أموره وأخباره يمزج بها الخط المتعارف فيصير بذلك الكتاب ملغزاً مستغلقاً فلا يجد المطلع عليه باباً يدخل منه إلى فتح شىء من معاين الكتاب . . ثم نوع أيده الله هذا الخط إلى أنواع يخص ولى عهده منها بنوع يرجع إليه فى فك معمى كتبه ثم إذا جهز أحداً بالمساكر أو بعثه فى غرض رسالة أو قلده جانباً من أطراف ممالكه وثغوره ناوله خطاً من تلك الخطوط يفك به رسائل أمير المؤمنين ويكتب به هو من عنده فيما يريد تعميته من الأخبار وخبايا الأسرار » (ص ٢٠٦ – ٢٠٧) .

— كان للقاضى دور هام فى المغرب كبلد إسلامى ، زمن المولى أحمد الذى كان « أشد الخلفاء إنقياداً للشرع منصفاً حق من نفسه فيما يتوقف عليه حكم الله » (ص ١٩٤) ، وقد بلغ به الأمر أن « سوغ للقاضى توجيه الحكم على من يتعين عليه حق فى داره الكريمة » (ص ١٩٦) . كما كانت لصاحب الشرطة مهمة السهر على الأمن والنظام فى المدينة (ص ١٩٤) . وفى الولايات والأقاليم هناك العمال الذين تناط بهم مسؤولية تسيير ولايتهم وفق توجيهات المولى أحمد المنصور (ص ١٩٤) ، وإذا جار أى مسؤول على الرعية ورفع المظلومون ظلاماتهم إلى العاصمة مراكش فان المنصور سرعان ما يظهر « غلظته على جبابرة العمال المشهورين بالحيف وإرتكاب الجور وموالات تكلمه عليهم وشحولهم بأنواع العذاب والانتقام وقذفهم فى السجون والمطابق مقرنين فى الأصفاد ومصادرتهم » (ص ١٩٤) .

— وكنموذج للرسائل التى كان المنصور يبعثها إلى من يهمه الأمر فى الداخل أو الخارج أورد الفشتالى فى الصفحة ٧٤ نفس خطاب المولى أحمد إلى عمر بن محمود

ابن عمر قاضي تنبكتو بالسودان « ونص الكتاب . . . بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله ثم كانت العلامة الكريمة المباركة المذهبة المنيرة المشرقة التي حظت فيها عين الإمام وبنان سط النبي عليه السلام إسمه الشريف المبارك الكريم بتدبيج يبهر العيون حسناً ورواء وفخامة ويسع منفسح البياض المعد لذلك ما بين البسملة ومبدأ الخطاب الكريم» .

— هذه جوانب عن الإدارة المدنية ، وعن الإدارة العسكرية المغربية زمن المنصور . إهتم الفشتالي بوصف القوات العسكرية المسلحة وتنظيمها وطرق تدريبها وعن الفتوحات العديدة التي قامت بها ، دون أن يغفل عن وصف معداتها وأسلحتها وطرق قتالها .

فالمنصور أولى الجيش عناية خاصة منذ توليته « فاختص رؤساء العرب وأكابر الدولة منهم بالمسورة والتدبير وقيادة عساكر الخيل البزنية واصطفى من العجم موالي أنبتتهم نعمته ودربتهم تربيته فنجبت طوائف عديدة ليس منهم فتى إلا أضخم حالا وأعظم شأناً » (ص١٩٧) . وجعل له ديواناً خاصاً به « . . من أمثالهم ومن دونهم من ضمه الحجر المتخذ لهم بايوان الخلافة العلية » (ص ١٩٧) . ولم تمض فترة من الزمن حتى أصبح عدد القوات المسلحة «عدداً جماً يضاعف أمير المؤمنين منهم مئون عما كان أيده الله عني لمهده الكريم بجمعهم والإستكثار منهم » (ص ١٩٧) . وقد كان المنصور متأثراً عند إنشائه للجيش المغربي بالأتراك العثمانيين الذين كانوا قد اشتهروا بقوة وبطولة الجيش الإنكشاري « . . من عساكر النار المعروف بجيش الإنكشارية) ص ١٩٧ . لذا فقد دخلت إدارة الجيش ألفاظ أجنبية كثيرة مثل « لأن باي لفظة عجمية معناها قائد القواد » ص ١٩٧ . وغيرها .

وفيما يتعلق بتدريب الجند على الرماية وإصابة الهدف ، فقد جرت العادة بأن من « أصحاب الغرض بشهمه وقرطسه شاد بذكره المشيد وصدع باسمه فيتناول الحصة المعلومة فتنبعث المنافسة الواقعة بين القوم في ذلك على مزيد التدريب والتخريج في الرماية » [ص ١٧٢ — ١٧٣] . واعتادت من جهة أخرى القوات المسلحة من المنصور « رميها المأزق الجلاد ، دروباً على الدربة وارتياضاً على صدق المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء وبعيداً عن التراب والإخلاد إلى الراحة

والركود والسكون إلى الدعة لما يؤدى إليه ذلك فى وهن عزائمهم ولين عرائكهم وفل شبي شوكتهم عند الحاجة إليهم » ص ٧١ فكانت بذلك القوات المغربية مثالا النظام « لما مدنوا عليه من الانضباط وهذبهم من ثقاف السياسة حتى لو سيموا سم الخياط لوسعهم مجالا مع تناهى الشركة والبأس والشهامة سيرة دربوا عليها حتى صارت لهم سجية وغريزة طباع لم يتات النسج على منوالها » ص ٧٧ .

لقد نظم المنصور قواته المسلحة وجعلها عدة فرق أهمها : « جيش الأصباحية من جيوش النار » ١٩٧ . و «جيش الموالى المعلوجى من عساكر النار المعروف بجيش الإنكشارية » ١٩٧ و «جيش الأندلس من جيوش النار» ١٩٧، ثم « جيش أهل السوس فى عساكر النار بحضرة الخلافة العلية » ١٩٧ .

بالإضافة إلى العديد من القبائل التى ألحقها المنصور « بديوانه فتميزوا بشائر الجندية ولبسوا شاراتها والحق رؤساءهم بطبقات القواد اقطعهم ما شاء ومن البلاد » [٥ ، ٦١] وفيما يرجع للمعدات الحربية ووسائل القتال ، فالفشتالى أبرز مدى الكفاية المنصور بذلك لمدرجه أن الجيش المغربى قد أصبح قوة « قاذفة بشواظ النار وحصباء البندق المنهل بسحائب من البارود مركوم تزجيه الرعود القاصفة والصواعق الراجفة تتبعها الرادفة » ص ٧١ فأحرز لذلك انتصارات متوالية وفتح أقطاراً ومناطق واسعة : « . . . فزحفوا إليهم حينئذ من ساعتهم وأحدقوا بهم فى معتصمهم ونصبوا عليهم مدافع النار . . . وزجروهم بحصى السماوى منها وألحوا بالحربى على أسوارهم ودلفت إليها الأجناد وتنادوا بشعائر النصر . . . وأرعدت رعود النار من كل جهة فأرسلوا عليها شآبيب الرصاص وأطبق عليها ليل ديجوجى من البارود وتبوأ الرجل مقاعدهم للقتال . . وحمى الوطيس وضجت الأرض من صواعق النار الموقدة . . » (٤١ — ٤٢) هكذا وأعم الأمن والإستقرار كل أطراف الإمبراطورية المغربية التى كان المنصور قد أقام بها قواعد عسكرية «فثقف بهم الجهات وسد الثغور والمسالح» (ص ٣٢) ، علاوة على تحصين العديد من المدن الشاطئية « أسفى وبلد أزمور . . ومدينة أصيلا وسائر الأطراف والثغور ٢٨١ والداخلية كمدينة فاس التى بنى بها قلعتين عظيمتين مسلحتين فموذ بهما أيده الله المدينة من كل طارق يطرق إلى غابر الدهر » (٢٧٨) .

وأخيراً لقد اهتم المنصور بالأسطول واتخذ من الرباط — سلا والعرائش قواعد لقواته البحرية « ثم صرف همته أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه » . التى منها « القطائع والشوانى » وقد كان الأسطول يعمل تحت إمرة قادة أكفاء مثل « الرايس شعبان فهو اليوم قبطان الأسطول » (ص ٣٠٣) كلفوا من قبل المنصور بالقيام بأعمال الجهاد فى البحر « وهو اليوم أيده الله لهذا العهد بصدد الإكثار من الأساطيل رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين . . . حتى يبلغ أمل الإسلام فى الجهاد ويفتح من أرض الأندلس أقصى البلاد . . . » (ص ٣٠٣) أما علم المنصور فهو « اللواء العظيم الأبيض الذى هو علامة على شعار الدولة المدعو باللواء المنصور » (ص ٢٠٠) .

٢ — المظهر الاقتصادى : يتضمن المخطوط معلومات اقتصادية هامة عن المغرب فى عهد المنصور : ففيما يتعلق بالزراعة نجد بأن المولى أحمد قد أقطع القبائل أراضى واسعة لزراعتها وأن هذه السياسة قد نجحت إلى حد بعيد « وأقطعهم ماشاء ومن البلاد فبهت بذلك أحوالهم » ص٦١ علاوة على أن استقرار المهاجرين الأندلسيين قد أثر على إقتصاد البلاد وساعد كثيراً على ازدهارها ، « أقطعتهم الدولة أراضى فسيحة بالجانب الغربى من خصها الأفيح فاغترسوا بها جنات معروشات وغير معروشات وحصلوا من استغلال ذلك إلى اليوم على ما أنساهم ذكر وطنهم واعتاضهم مما فاتهم به » (ص ٨) . ومن مظاهر تطور الزراعة فى المغرب تشجيع زراعة قصب السكر التى أصبحت تشمل مناطق واسعة عدا سوس موطنها الأول « ثم انطلق العمل وعم الاغتراس بالقصب الأوطان » (ص ٢٨٠) .

وبعد فتح السودان وإلحاقها بالخلافة السعدية أخذ المنصور يفكر فى طرق استغلال الأراضى الخصبة الموجودة خاصة على ضفاف نهر النيجر « وهو أنه يمكن منه اقتطاع الخلجان والأنهار المغلقة المشعبة الذانب والجداول وأعلى البسائط مناسبة الأراقم خلال الأباطح والوهاد التى تغل وضروب المزارع وتنتظم عليها الحدائق الغلب والبساتين ومفروش الشجر والثمار والأدواح الأشبه ملتفة الأغصان والرياض المفوفة الخمائل . . فتمتى على واسطة الأقاليم زكاء نبت وكرم تربة وجموم أقوات

وحبوب وفواكه جنية وقطوفها دانية » (ص ١٣٠) وفعلا فإن القائد المغربى « محمود باشا أخذ فى إنشاء نهر اجتلبه من غمرة واقتطفه من تياره ويمكن ذلك من غير ما موضع منه ، وعن قريب إن شاء الله تقود تلك الأمصار تزهوا على جلق وشط الفرات ويطير صيتها فى الخصب فتمير القاصى والدانى من أقاليم السودان » (ص ١٣١) .

أما الصناعة فقد ازدهرت بدورها ونمت الحرف والصنائع وتعددت مجالات نشاطها . للمتطلبات الجديدة التى فرضتها ظروف المغرب الحديث ومن مظاهر ذلك :

— مصانع السكر : « ومن أعظم آثاره ... المعاصر السكرية التى ابتدع رسومها واخترعها ببلاد حاحة وشوشاوة من عمل مراكش» (ص ٢٧٩) . وبكل معصرة من هذه المعاصر « ما شئت من برك رحيبة قرجفان كالجوارب وقدور راسيات ولوالب فلسفية وحركات هندسية » (ص ٢٠٠) . ويعمل بها العدد العظيم من العمال « وإذا ألقيت عصى التسيار بمعصرة منهما رأيت مجمع الورى وأول الحشر وقرية النمل وكورة النخل ومدرج الذر لكثرة ما ضمت فى العملة ومشرت من الخلق ولا تسئل عن هولها ولغط الأصوات بها تدل على عظمة شأنها وضخامة أحوالها » (ص ٢٨١) . وعن سير العمل بكل معصرة نجد « ديار الطحن . . . ومخازن السعر واهواء الحبوب والبرك . . تمتاز منها قدور الطبخ مياه السكر أوان الطحن ثم إفراغ القدور الراسيات والجفان والجوابى . . . ثم أجرى أيده الله لاستدارة رحاها المظيمة الأخشاب الجافيـــة الإجرام النهر المقروف باسيف أنوال » (ص ٢٧٩) .

— معامل الأسلحة « وإما ما يفرغ مع الأيام من مدافع النار ومكاحلها بدار العدة الماثلة قرب أبوابها الشريفة من قصبتهم المحروسة المذكرة بنوفير الأكيار وزبر الحديد لفح جهنم » (ص ٣٥٣) .

— دور صناعة السفن « ثم صرف همته أيده الله إلى إتخاذ الأسطول برباط سلا أمنه الله فتعددت مراكبه » ص ٣٥٢ وعلاة على الرباط وسلا هناك العرائش « ولما كمل بناء حصن الفتح الذى هد به أيده الله تعالى باب البحر ومتبوأ السفين فى مرسى الدرائش نقله إليه وأنزله به » (ص ٣٥٣) .

وهناك المصانع اليدوية للحرف المختلفة التي عدد الفشتالي عدداً منها مثل : معامل الشموع « ويعكف على خدمة رياض الشموع التي تجلوا محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النحل في نسج أشكالها لطفاً وإدماجاً » (ص ٨٨٢) ، والحسك « واستحضر من أنواع الحسك أمام الحضرة كل قوراء مصنوعة من الخشب » وآلة البخور « ومثلت أمام الحضرة الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل فضية الصوغ بديعة النقش » ص ٨٣ ، والنجارة « جمع لها أيدي العملة في صناع النجارة » (ص ٧٢) .

وشمل الازدهار عالم التجارة أيضاً لوجود العوامل المساعدة من أمن واستقرار داخلي ، ولاتساع الامبراطورية المغربية واختلاف أقاليمها ثم للروابط الحسنة التي كانت للمغرب مع الدول المجاورة ، وخاصة دول أوربا الغربية الناهضة . وهكذا « استفحلت الدولة اليوم لعهده الكريم وتفرقت التجارة وتضاعف خراج المعادن » (ص ١١٤) كما تطورت طرق المواصلات ووسائل الاتصال بين مختلف المدن والبوادي ، وأكثر ما كان المسافرون يعتمدون على « الأبل إذ هي ملاك السفر البعيد ومركز مداره » (ص ٧٠) . وعلى العربات « وأعمل في نقلها العجل » (ص ٧٣) ويركبون السفن في البحر . أما المولى أحمد المنصور فقد كان يستعمل في أسفاره « افراك وهو القصر المد لمنازلهم أيدهم الله بمحلاتهم السعيدة ذو السياج المحيط بالخيام والقباب من كتان مترف » (ص ١٤٥) و « السياح وهو قصر اتخذه مولانا الإمام ... من الخشب المولف ذات الألواح بعمل عجيب حموه فيرتحل به في الأسفار القريبة » (ص ١٧٤) . ومن الأمثلة التي ساقها الفشتالي عن طرق المواصلات : الطريق الواصل بين مراكش وفاس والماربوادي السد وقلعة السكرار وتادلا وأم الربيع وأبو الحمائر وعين أغبال ثم مكناسة وراس المال فمدينة فاس . كما جاء في وصفه للسفر الذي قام به المنصور إلى فاس (ص ١٠٧) .

وعن العملة المتداولة في المغرب زمن المنصور هناك : الذهب العين « وما زال يبيع منها في كل عام بألاف من الذهب العين) (ص ٥٠١) ، « ... كانت نهايته ستين الفاً من الذهب العين » (ص ١٠) .

والدينار « فانهالوا عليه بين يدي الإمام بشتابيب الدنانير » (ص ٥٦) .

والدرهم « فـكان يتمشى له فى كل شهر من لدى مقدمة إلى حين منصرفه تسعمائة درهم » (ص ٥١٠) .

وخلاصة القول : لقد ازدهرت أوجه النشاط الاقتصادى بالمغرب ازدهاراً عظيما دفع الفشتالى إلى القول بأن دولة المنصور قد « أثرت العديم وأكسبت المحروم » (ص ١٤٦) فلا غرو إذا لقب لأجل ذلك « بالمنصور الذهبى » .

٣ — **المظهر الإجتماعى** : إهتم الفشتالى فى «مخطوطه» بإبراز صور مختلفة عن الحياة الإجتماعية بالمغرب فى عهد المولى أحمد المنصور ، فقد وصف طبقات المجتمع ولا سيما حاشية المنصور ، وأثبت العديد من العادات والتقاليد الإجتماعية ، كما وصف مآثر المنصور العمرانية كقصر البديع بوجه خاص .

أما المجتمع فقد كان يتكون من « شرفاء وقضاة وفقهاء وكتاب وشعراء وقراء وخطباء وأجناد ورؤساء وأشياخ نبهاء وعمال » (ص ٢٦٣) . والطبقات التى أشار إليها المخطوط :

— «الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية المؤذنين النعارين فى السحر واذان » (ص ٢٨٢) .

— «طائفة الصحافين المحترفين بحمل خدور العرائس عند الزفاف» (ص٢٨٢).

— طبقة « أهل الآلة والغناء » (ص ٣٠٠) .

وأما العادات والتقاليد فهناك :

— الاحتفال بيوم عاشوراء حيث يقيم المنصور حفلا « لختان ذرية ضعفاء من مساكين الحضرة وأحوازها وذوى الحاجة من أهلها » (ص ٣٠٠) .

— ولع المغاربة باللباس الأبيض « ثم يقتعد أريكة قبته وسرير ملكه وعليه خلع البياض شعار الدولة الكريمة » (ص ٢٨٢) . واستعمال الطيب (ولم يزل فى خلال دولة الإنشاد يختلف الظرفاء من الخدام على الناس لاخضال الملابس بماء النعيم المصعد من نسير الورد والأزهار الأرجية يسكب عليهم رشها بطاقات الرياحين والآس سكبا غدقا فى الحجور والأردان » (ص ٢٩٩) . والبخور « مثلت أمام الحضرة

الأمامية لوقود العنبر آلة ضخمة الشكل » (ص ٢٨٣) . واعتناؤهم بالطعام والشراب « ثم تنهل على الحفل عارض النعمة من أبواب القصور الكريمة ويخص بالجفان والأخونة والصحون والطيافير الرحيبة الأقطار جامعة لألحم السارح وأنواع الطير دواجن البيادن . . فلا تسئل عن التفنن فى الطابخ والتنويع فى المآكل والإرضاخ فى النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الحلاوى المتنوعة والمربيات المتفننة » (ص ٣٠٠) .

ومن العادات أيضاً الخروج إلى الصيد (ص ١٠٧) وقذف طلقات المدافع فى العيدين وعند ورود البشارة « وإذا استهلت رعودها فى العيدين عند العود من المصلى أو لورود بشارة عظمى » (ص ٢٧٨) وإقامة الإستعراضات « انتظم عالم من النظارة فى سماطين بما فى الطريق . . قد جللوا جنبق الطريق وركبوا الأسوار والأسطاح وبرزت ربات الحجال من أعلى المنازه والصروح » (ص ٢٨٢) .

وهناك عادات تقام فى مناسبات دينية : عند التوجه إلى بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج (ص ١٢٧) ، وخلال شهر رمضان المبارك (١٧٢) وبمناسبة ذكرى عيد المولد النبوى حيث توجه « الرقاع إلى الفقراء أرباب الذكر على رسم الصوفية من المؤذنين . . . فيهوون للدعوة من الأماكن النائية ويعكف على خدمة رياض الشموع التى تجلو محاسن هذه الدعوة الجهابذة الذين يبارون النحل فى نسج أشكالها . . . حتى إذا كان ليلة عيد الميلاد الكريم . . . وحضر وقت زفاف العذارى من رياض الشموع إلى الأبواب العلية الشريفة وحضرت الآلة الملوكية . . . انتظم عالم من النظارة سماطين بحافى الطريق . . . وبرزت جذوع الشموع كالعذارى . . . فارتفعت أصوات الآلة وقرعت الطبول وضج الناس بالتهليل والتكبير والصلاة على النبي الكريم . . . فإذا حضرت صلاة الفجر برز مولانا أمير المؤمنين أيده الله فيصلى بالناس ثم يقتعد أريكة قبته . . . وتسايل الناس من البلد على طبقاتهم . . . تقدم أهل الذكر والإنشاد . . . ثم حضرت دولة إنشاد الشعراء . . . ولم يزل فى خلال دولة الإنشاد الظرفاء من الخدام على الناس لإخضال الملابس بماء النعيم . . . ثم تنهل على الحفل عارضة النعمة . . . ويشرح مجمل الإرضاخ بانسكاب الحلاوى المتنوعة . . ثم يختم بالشكر والدعاء . . . » (ص ٣٠٠) .

وأخيراً هناك مناحيه العمرانية فى عهد المنصور وقد تميزت بقصر البديع الذى « طابق الاسم المسمى لاحتوائه على كل نوع من أنواع البدائع وغرائب العجائب » (ص ٢٦٧) .

٤ — **المظهر الفكرى** لقد وقف الفشتالى طويلا عند تعرضه للناحية الثقافية بالمغرب زمن المولى أحمد المنصور ، حيث برز مختلف النشاطات الفكرية واهتم بصورة خاصة بالمنصور العالم الأديب الشاعر العبقرى والمؤلف ، ثم بحاشيته التى ضمت العديد من رجال العلم والأدب ، ولا غرابة فى ذلك فهو العالم الأديب وأحد أعلام الفكر البارزين فى حاشية المنصور ، وعلمه كثيراً أن يبرز قيمة هذه الطبقة العلمية لإظهار مكانتها ، ولأن فى التنويه بها تنويهاً بالمولى أحمد المنصور الذى جمع إلى جانب صفات القائد السياسى الحازم ، مزايا المسلم العادل النزيه ، ورغم أن اهتمام الفشتالى انحصر فى الخليفة المنصور ودائرته الخاصة ، كما هو الشأن فى جميع المظاهر السياسية والحضارية التى تعرض لها ، فإن الباحث يستخرج الكثير من المعلومات المتعلقة بالناحية الفكرية والنشاط الثقافى :

فطالب العلم يلقن أولا مبادىء القراءة والكتابة ثم يشرع فى حفظ كتاب الله العظيم ، وبعد آن ، يأخذ فى دراسة مختصر خليل ، الرسالة ، مقدمة ابن آجرم ، ألفية ابن مالك ، لامية الأفعال ، علم الحساب ، علم العربية ، الألفية ، أصول الدين ، كبرى السنوسى ، حاشية الصغرى ، حاشية الكبرى ، شرح ابن زكريا ، الكبير والصغير ، ايساغوجى والشمسية فى المنطق ، علم العروض ، تلخيص المفتاح والإيضاح ، الكتب الخمس ، الحديث ، الفقه المالكى ... (ص ٢١٩ وما يليها) .

وبعد الدراسة والتحصيل تسلم لطالب العلم إجازة خاصة « وقرأت عليه أوائل الكتب الخمس بل البخارى والترمذى ومسلم وأجازنى فيها وفى باقى الكتب الخمس بسند متصل مذكور فى فهرسته التى كتب برسمى وأجازنى فيها بكل ما له من مقروء ومسموع رحمه الله » (ص ٢٢٠) .

وعن الجو العلمى : نلاحظ حلقات العلم التى تعقد خاصة خلال شهر رمضان المعظم « ومنها قيام رمضان وإحياء لياليه المباركة . . . يلتقى لذلك مشيخة القراء

والأسانيد المبرزين فى السبع وحسن الأداء والتلاوة ويستنفرهم لشهود رمضان معه فى الحواضر... ثم يبرز صباح كل يوم من أيامه لسماع الحديث الكريم أيضاً وسرد الجامع الصحيح للبخارى بين يديه يعقد لذلك مجلساً حافلا من أهل العلم ومشيخته برسم المذاكرة والتفهم فى أسرار الأحاديث النبوية ويحضر لذلك من كتب الفن بقصد الرجوع إليها فيما أشكل » (ص ١٧٢) ، وتشجيع المنصور للعلم والعلماء وطلبة العلم : فالعلماء يؤثرهم المنصور « بالمواكلة معه فى مائدته مثنى عن حضور بعضهم أو جميعهم فى الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرفه إلى منازلهم وأبياتهم وكل ذلك إجلالا للعلم ومحبة فى أهل الخير وتودد الأهل الدين » (ص ١٨٦) . وكذا طلبة العلم « وإقباله على كل صنف منهم وتضعيف الجرايات لهم وإيثار المجتهد ودوى الفهم منهم بمزيد العناية والإقبال فعناية أشرقت على جميع العلم بأنوارها وعمت كافتهم جدتها » (١٨٦) . ونتيجة لذلك « تنافس الناس لهذا المهد الكريم من أجل ذلك فى اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسمة أرزاقهم حتى كثير حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التأليف والتصنيف . . وكل ذلك بعناية أمير المؤمنين أيده الله وشريف همته وصالح نيته » (ص ١٨٦) .

ومن مظاهر تشجيع المنصور للعلم : حثه العلماء على التأليف « وشهد أمير المؤمنين أيده الله الهمم وأغرى بكل فن أهله وجذب بضبع كل فهامة فتنافس الناس ونبغ التأليف فى أيامه السعيدة» (ص ٢٦١) وقد كان المنصور من الذين ألفوا تآليف عديدة « تسامت همته الشريفة أيده الله إلى تدوين كتاب فى علم السياسة . . . وسمى أيده الله تعالى هذا التأليف الشريف بكتاب المعارف فى كل ما تحتاج إليه الخلائف) (ص ٢٥٨) . وسعيه إلى إحياء المخطوطات العلمية الهامة بأن يأمر بنسخ النسخ العديدة منها وتوزيعها لتعميم الفائدة « ومات الشيخ رحمه الله وتركه منتبذاً فى مسودته بين أوراق خزانته ولم يبرزه للناس فتلافى مولانا الإمام أمير المؤمنين أيده الله أمره وبحث عنه فرفعه إلى مقامه العلى أولياء الشيخ مبدد الشمل فتوجهت إليه العناية الكريمة فانتظم جمعه وترتبت قلادته وكتب الله لمولانا . . . مثوبة استخراجه من لفيف الإهمال وإنقاذه من لهوات التلف » (ص ٢٦٢) .

على أن شهرة المنصور العلمية جعلت بلاطه مقصد الكثير من رجال العلم والأدب المغاربة والمشارقة على السواء « قد ارتحلت إليها الشعراء من الأقطار القاصية والآفاق الشاسعة وضربوا إلى بابه أكباد الإبل » (ص ٢١٠) حيث وجدوا منه حسن الضيافة والاستقبال « وأما صلاته الجزيلة أيده الله تعالى وهباته الجسيمة الجليلة للشعراء ومن يفد على حضرته العلية من وفود الأعيان والعلماء وذوى الحاجات المنثالين على بابه من كل قطر وفى كل وقت فأجل من أن يحصى » (ص ٢٠٣) . وأما كبار العلماء المشارقة خاصة الذين لم تساعدهم ظروفهم المختلفة على التوجه نحو المغرب ، فقد أرسلوا إليه مؤلفاتهم وأجازه البعض منهم كتابة « ومن المشايخ الأعلام الذين أجازوه أيده الله كتابة ومراسلة من الشرق إلى الغرب الشيخ الإمام . . . رئيس أئمة العلم بالديار المصرية ... حجة الإسلام ... أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن البكرى الصديقى » (ص٢٢٢) « وممن أجازه أيده الله كتابة ورسالة الشيخ الإمام... فخر العلماء الجلة قاضى القضات المالكية بالديار المصرية... الشيخ بدر الدين القرافى » (ص ٣٢٦) . وقد أثبت الفشتالى نص المراسلتين اللتين أجاز بهما المنصور . وهما من الوثائق التاريخية الهامة التى تضمنها المخطوط إذ يندر وجودها بمؤلف آخر ، ثم إنهما قد تضمنتا دراسة شاملة للنشاط الفكرى والعلوم الدينية بصفة خاصة فى مصر والشرق الإسلامى خلال أواخر القرن العاشر للهجرة الموافق لأواخر السادس عشر للميلاد ، وعلى سبيل المثال ذكر الشيخ القرافى فى إجازته « ورتبت هذا المطلوب على فصلين وخاتمة الأول فى الإجازة بسورة الفاتحة ثم بسند الحديث الشريف وأزهاره الفائحة ، الثانى فى الوصول إلى إمامنا إمام داراً للهجرة وسلسلة فقهه الشريف والخاتمة فى الإجازة وذكر مولدى وما يسر الله تعالى لى من التأليف وأنعم به من فضله المنيف) ص ٢٢٩ وأخيراً ولأخذ صورة واضحة عن ازدهار عهد المنصور من الناحية العلمية ، يفصل الفشتالى القول عن خزانة المنصور « وقد اشتملت الخزانة الكريمة العلية الإمامية الشريفة اليوم على عدد جم من تصانيف أهل العصر فى كل فن حتى فى الطب والهندسة» (ص ٢٦١) . وأهم التآليف العلمية والدينية التى تضمنتها مثل : مؤلفات العالم أبى عبد الله محمد بن أبى عبد الله الرجراجى الذى جمع بين « تقييدى الإمامين البسيلى والسلوى عن شيخهما صدر الأئمة . . . أبى عبد الله

ابن عرفه » (ص ٢٦١) ، ومؤلفات « شيخ الجماعة أبى العباس أحمد بن على المنجور على رجز ابن زكريا فى علم الكلام) (ص ٢٦٢) ، ومؤلفات « الشيخ الإمام الأوحد الفذ الفريد أستاذ المغرب فى وقته فى علوم القراءات وسيبويه زمانه فى العربية والنحو الشيخ أبى العباس أحمد القدومى » (ص ٢٦٣) ، وتآليف « الفاضل العلامة . . الرحالة الحاج أبى جمعة سعيد بن مسعود الماغوسى التى منها شرح لأمية العجم أملاه بالبلاد الشرقية ورفعه إلى حضرة مولانا الأمام أيده الله وقد وسمه بإسمه الشريف وعليه تقريظات علماء مصر وفضلائها وبعض علماء الشام) (ص ٢٦٣) ثم « ديوان الشريف الفاضل السرى محمد بن أبى الفضل المكى . . وهو الذى جمع فيه مدائحه فى مولانا الإمام » (ص ٢٦٩) ، ومما تضمنته خزانة المنصور « الكشاف فى علم التفسير وحواشيه للطيبى وسعد الدين والسيد والفارسى وابن خليل السكونى والعلامة ابن البناء وتفسير البيضاوى وحواشيه للشيخ زكرياء والحافظ الأسيوطى . . وكتاب الرضاع على رأى المغنى ومراقى المجد إلى رأى السعد من تأليف العلامة . . أبى العباس أحمد المنجور . . ومغنى اللبيب فى العربية وحاشية الشمونى عليه وشرح ابن الدمامينى وحاشيته . . والإرشادات لإمام الحرمين فى علم الكلام . . والمعامل الدينية للفخر . . وشامل ابن عرفه الذى حاذى به طوالع البيضاوى والصحائف وشرحها للسمرقندى والمقاصد وشرحها لسعد الدين التفتازانى والمواقف لعضد الملة والدين وشرحها للسيد الجرجانى وحاشية حسن جلبى على شرح السيد والأربعين للامام الفخرى والقطب فى علم المنطق على الشمسية . . ومنطق الشفالابى على بن سينا . . وكافية ابن الحاجب . . وشرح ابن الدمامينى على تسهيل ابن مالك . . . » (ص ٢٢٢)

وينضاف إلى هؤلاء الأديب العالم أبو فارس عبد العزيز الفشتالى فى تأليفه القيم « مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا » . ورغم أن الأيام قد أتلفت القسم الأعظم منه — وقد تجود به يوماً ما — فان ما بين أيدينا ليؤكد مدى اتساع أفق المؤلف وغزارة علمه وبراعة شاعريته .

* * *

وفى الختام ، لقد نقل عن مناهل الفشتالى مؤرخون عديدون أبرزهم : الأفرانى

فى « نزهة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى » ، وأبو القاسم الزيانى فى الترجمان المعرب عن دول الشرق والمغرب » ، ومحمد اكنسوس فى « الجيش العرمرم الخماسى فى دولة مولانا على السجلماس » ثم الناصرى فى « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » وغيرهم ، وخلال العصر الحديث وبعد ضياع مؤلفات الفشتالى ، أصبح الاعتماد كثيراً على ما نقلته هذه المؤلفات عن المناهل من قبيل : إذا ضاع الأصل حل الفرع محله . والآن وقد وجد الأصل ، فإن الباحث عن العهد السعدى وعصر المنصور خاصة ، قد أصبح فى غنى عن الرجوع إلى المراجع السابقة ، خصوصاً فيما يتعلق بالموضوعات التى كانت هذه المؤلفات قد تناقلتها عن الفشتالى . والجدير بالملاحظة هو أن المخطوط الذى بين أيدينا ليس كل ما ألفه الفشتالى بدليل العديد من العبارات التى وردت كقوله : كما ذكرنا ، كما سبق لنا القول ، حسبما قدمنا . . . والتى يفهم منها أن الفشتالى قد سبق له التحدث عن تلك الوقائع ، ولكن جميع ذلك قد ضاع ففى هذه الحالة تحتفظ المراجع التاريخية عندما تنقل عن المناهل معلومات لا يتضمنها مخطوطنا هذا ، عملا بالقاعدة السابقة .

عبد الكريم كريم